

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

تبين لنا بشكل واضح من خلال مواد المجلدات المتقدمة مدى أهمية حلب ، مع عظمة الأدوار التي شغلتها هذه المدينة العريقة ، ولقد رأينا هذه المدينة تنجب عددا كبيرا من المؤرخين الذين اهتموا بالتاريخ الاسلامي العام ، او بالتاريخ المحلي مع التركيز على احداث الحروب الصليبية ، ومثلا حدث في دمشق حين وصلت الكتابة التاريخية ذروتها مع ابن عساكر في كتابه العملاق « تاريخ دمشق » فإن الكتابة التاريخية وصلت الى الذروة في حلب بعد جيل واحد من ابن عساكر ، وذلك على يدي صاحب كمال الدين ابن العديم ، ونحن وان عدنا ابن العديم بشكل غير مباشر من تلاميذ ابن عساكر ، انه بتقديري اعظم مؤرخ انجبته بلاد الشام على الاطلاق ، وابن العديم هو صاحب كمال الدين عمر بن احمد بن هبة الله... ابن أبي جرانة ولد في مدينة حلب في ذي الحجة سنة ثمان وثمانين وخمس مائة للهجرة وعندما بلغ السابعة من عمره حمل الى المكتب للدراسة ، وهناك ظهرت استعداداته مما بشر بذبوغه المبكر ، وقد كان نحيف البنية لذلك عني به ابوه عناية كبيرة ، فحصد على رعاية صحته ، وسهر على تربيته وتعليمه ، ونظرا لمنزلة والده ولما تمتعت به اسرته من مكانة نال ابن العديم حظه وافيا من معارف عصره الدينية والندوية ، ويروى بأن اباه حضه على اتقان قواعد الخط ، ذلك انه - اي الأب - كان رديء الخط ، فأراد ان يجنب ابنه هذه الخلة ، ونجح في هذا المجال نجاحا كبيرا للغاية ، وقد وصف ياقوت اتقان ابن العديم لقواعد الخط العربي بقوله: « واما خطه في التجويد والتحرير والضبط والتقييد فسواد ابن مقله ، وبدر ذو كمال عند علي ابن هلال » ، ويؤكد شهادة ياقوت هذه المجلدات العشرة من كتاب

بغية الطلب التي وصلتنا بخط ابن العديم ، حيث نرى واحدا من المع
النساج في تاريخ العربية واكثرهم ضبطا وبراعة وامانة ويقظة
ودراية.

وفي باب العناية في انشاء ابنه وتثقيفه صجب احمد بن هبة الله
ولده عمر في رحلاته وسفاره ، حيث زار دمشق اكثر من مرة كما
زار بيت المقدس ورحل الى العراق والحجاز.

وعندما بلغ سن الشباب وجد ابن العديم السبل امامه كلها
مفتوحة لمستقبل لامع ، وكان لمواهبه وثقافته واسرته الفضل الاكبر
في تحقيق نجاحاته ، وهنا يحسن التدوقف قليلا للتعرف الى اسرة
ابن العديم ، وذلك قبل متابعة الحديث عن مراحل حياته:

يعرف الجد الأعلى للصاحب كمال الدين باسم ابن ابي جرادة ،
وكان صاحباً لامير المؤمنين علي بن ابي طالب ، ينتسب الى ربيعة
من عقيل احدى كبريات قبائل عامر بن صعصعة العدنانية ، وكان
يقطن مدينة البصرة ، وفي هذه المدينة عاش اولاد آل ابي جرادة
واحفادهم ، وفي مطلع القرن الثالث للهجرة قدم احد افراد اسرة ابي
جرادة الى الشام في تجارة وكان اسمه موسى بن عيسى وحدث أننذ
ان الم بالبصرة طاعون ، لهذا قرر موسى البقاء في الشام ،
واستوطن مدينة حلب ، وفي هذه المدينة التي كانت عاصمة شمال
بلاد الشام ، ومفتحة
الطريق الى العراق وبلاد المشرق الاسلامي مع اسية الصغرى
والاراضي البيزنطية ، فيها خلف موسى بن عيسى اسرة نمت مع الأيام
عددا ومكانة وثروة وشهرة ، وتملكت هذه الاسرة الاملاك ، كما
ساهمت في جميع ميادين الحياة في حلب من سياسة وعلم وقضاء
وادارة وتجارة وغير ذلك ، وبهذا غنت اسرة آل ابي جرادة من
ابرز اسر حلب ، وظلت هكذا حتى حل بحلب الدمار على ايدي
جيوش هولاكو ، كما ظلت محتفظة باسمها ذاته طوال تاريخها ،
انما في القرن الاخير من حياتها كسبت اسما اضافيا ، اخذ رويدا

يعم في الاستعمال اكثر من الاسم الاصيل ، لكنه لم يلغه وكان الاسم الجديد هو « العديم » ، ونحن لانملك تعليلا لسبب هذه التسمية ، فقد قال ياقوت: « سألته اولاً لم سميتم ببني العديم؟ فقال: سألت جماعة من اهلي عن ذلك فلم يعرفوه وقال: هو اسم محدث لم يكن أبائي القدماء يعرفون بهذا» .

ودانت اسرة ابن ابي جرادة بالتشيع حسب مذهب الامامية ، وظلت هكذا حتى بدأ التشيع بالانحسار في حلب ، وذلك منذ النصف الثاني للقرن الخامس الحادي عشر ، هذا وان كنا لانعرف بالتحديد تاريخ اخذ هذه الاسرة بمذاهب السنة امكنا ان نقدر ذلك ، بحكم سقوط سلطة الشيعة في حلب مع عصر السلطان السلجوقي الب ارسلان) وهو امر يحدته بالتفصيل في مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية) ونظرا لعلاقات اسرة آل ابي جرادة الخاصة مع سلطات حلب ، لا بد ان الحال اقتضى المسائرة والتحول الى السنة ، ولربما حسب المذهب الحنفي.

وفي عوبة نحو سيرة صاحب كمال الدين نجده يحدثنا بأن والده خطب له وزوجه مرتين ، فقد اخفق في الزواج الاول ، لذلك طلق زوجته وتزوج ثانية بابنة الشيخ الاجل بهاء الدين ابي القاسم عبد المجيد بن الحسن بن عبد الله - المعروف بالعجمي ، وكان شيخ اصحاب الشافعي ومن اعظم اهل حلب منزلة وقدر وثروة ومكانة سياسية وبنية واجتماعية ، ومن زواجه الثاني رزق صاحب كمال الدين اولاده ، ولم يمت والده حتى كان ابنه احمد طفلا يدب على الأرض ، ويمكننا التعرف الى هذا الابن من خلال استعراضنا لكتاب بغية الطلب حيث سمع الكتاب على ابيه وقام بعد وفاة والده باستدراك بعض المواد التي حالت المنية بين والده وبين تدوينها في كتابه ، فمن المقرر ان ابن العديم مات دون ان يقوم باعادة النظر في مؤلفه « بغية الطلب» ولم يقم بتبويضه ، والذي وصلنا هو مسودة الكتاب ، انما نظرا لبراعة المؤلف وحسن طريقته وجودة خطه ، نرى ان مكانة الكتاب واهميته هي هي ، ذلك ان اهمية الكتاب نابغة مما

حواه من مواد تاريخية نهلها ابن العديم من وثائق ومصنفات غيبها الزمن عنا ، فابن العديم كان مصنفًا ممتازًا ولم يكن « مؤرخًا » حسب مصطلحات ايامنا هذه ، فهو قد جمع في كتابه المواد الاخبارية ونسقتها ، لكنه لم يحاول تعديلها ومعالجتها كما يفعل الباحث في التاريخ في جامعات ايامنا هذه...

ومنذ ان بلغ الصاحب كمال الدين سن الشباب اخذ يشارك في الحياة السياسية والعلمية لمدينة حلب ، فقد كان يحضر مجالس الملوك والظاهر غازي بن صلاح الدين - صاحب حلب - فيكرمه ويقربه ويقبل عليه اكثر من اقباله على غيره على الرغم من صغر سنه ، وفي ذي الحجة سنة ست عشرة وستمئة وولي ابن العديم اول عمل رسمي لقد ولي التدريس في مدرسة شاذبخت وكانت من اجل مدارس حلب وارقاها ، كل هذا وحلب اعمر ما كانت بالعلماء والمشايخ ، والفضلاء الرواسخ ، الا انه رؤي اهلا لذلك دون غيره ، وتصدر ، والقي المدرس بجنان قوي ، ولسان لودعي ، فأبهر العالم واعجب الناس ، ويبدو انه تولى بعد هذه المدرسة التدريس بالمدرسة الحلاوية ، التي كانت اجل مدارس حلب ، وهي مدرسة ما زالت قائمة حتى الآن ، تعلقوا واحدا من جدرانها لوحة حجرية كتبها ابن العديم بخطه.

ومع مرور الأيام علت مكانة ابن العديم ، فسافر عن ملوك حلب الى ملوك الدول المجاورة في بلاد الشام والجزيرة وأسية الصغرى ، والى سلاطين القاهرة وخلفاء بغداد ، وكانت خزائن كتب ووثائق كل بلد زارها تحت تصرفه ، فنهل منها ما لم ينهله سواه ، وادع جل ذلك في كتابه بغية الطلب ، ومن هذه الزاوية يمكن ان نرى اهمية هذا الكتاب ، ومن ناحية اخرى يمكننا ان نرى المدى الذي وصلت اليه خزائن المشرق العربي قبيل وقوع الطامة الكبرى على يد المغول بسنوات.

وفي كل مكان زاره ابن العديم كان يلقي الحفاوة من رجال السلطة ، وكان في الوقت نفسه يلتقي بالعلماء وشيوخ العصر فيأخذ عنهم ، ولقد اودع ما أخذه عن علماء عصره ، وماراه من احداث او شارك به ، اودعه في كتابه بغية الطلب ، حتى غدا هذا الكتاب اشبه بمنجم للمعلومات لا ينضب معينه.

وظل نجم ابن العديم يصعد في سماء السياسة في حلب وسواها حتى وصل الى مرتبة الوزير ، ولكن مشاغل السياسة والحياة العامة لم توقف العمل الفكري ولم تعطله ، وهكذا صنف ابن العديم عددا كبيرا من الكتب ، غلب على معظمها سمة التاريخ ، ولعل اشهر كتبه « كتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب » و « كتب الانصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن ابي العلاء المعري » وكتابه بغية الطلب الذي اشرنا اليه حتى الآن كثيرا ، وقد طبع كتاب زبدة الحلب في اجزاء ثلاثة في دمشق ، واعدت الآن تحقيق اكثر من نصفه ، واعمل الآن على تحقيقه كله. اما كتاب الانصاف فقد طبعت قطعة منه للمرة الاولى بحلب ثم اعيد طبعا في القاهرة ، واقول قطعة ذلك ان الكتاب لم يصلنا كاملا بشكل مباشر.

وعندما قلت بشكل مباشر اردت ان اقول بأن الكتاب وصلنا بشكل غير مباشر ، فقد روي لي منذ سنوات ان واحدا من احفاد ابن العديم ممن عاش بعد جده في القاهرة ، صنف كتابا حول القاضي الفاضل دعاه باسم « سوق الفاضل في ترجمة القاضي الفاضل » ، وتوجد من هذا الكتاب نسخة خطية في مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمت بالمدينة المنورة ، وقيل لي ان في ثنايا الكتاب ورد في احدي رسائل القاضي الفاضل بيت شعر من شعر المعري ، واراد حفيد ابن العديم ان يعرف بالمعري ، فقال: قال جدي في كتابه الانصاف والتحري : واثبت نص الكتاب بكماله ، ويوجد هذا الكتاب مصورا على شريط في معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة سابقا ، ومضيت الى المدينة المنورة للتأكد من هذا الخبر ،

فتيقنت من عدم دقته وأن حفيد ابن العديم نقل قليلا من كتاب جده الانصاف والتحري.

ويعود سبب انتقال ابن العديم الى القاهرة ، الى تعرض مدينة حلب الى الدمار سنة ٦٥٧ هـ على يد جيوش هولاكو ، وكان ابن العديم غادر مدينته الى دمشق ، ثم منها الى غزة فالقاهرة ، ويبدو انه عاد بعد عين جالوت الى دمشق ، وربما اراد التوجه الى حلب ، او توجه اليها فعلا ليعاين الدمار الذي لحقها ، وفي اثناء ذلك عرض عليه هولاكو منصب قاضي حلب ، فرفض ، وعاد الى القاهرة ، حيث امضى بقية حياته ، وقد وافته منيته في مصر في العشرين من جمادى الاولى سنة ستمائة وستين للهجرة .

وكننت في عام ١٩٨٨ قد حققت الموجود من كتاب بغية الطلب ونشرته بدمشق وقد انتزعت من هذا الكتاب جميع المواد الواردة خلال التراجم ولها علاقة بموضوع الحروب الصليبية ، وبالوقت نفسه اعدت تحقيق ما يزيد على النصف الاخير من كتاب زبدة الحلب ، وهذا الكتاب يختلف عن كتاب بغية الطلب ، فهو اشبه بكتاب الدوايات ، ويمائل كتاب تاريخ دمشق لابن القلانسي ، ولا يمكن عده ملخصا لكتاب بغية الطلب ، وكان المرحوم الدكتور سامي الدهان قد حقق هذا الكتاب ونشره في اجزاء ثلاثة ، وبذل الدكتور الدهان جهودا طيبة في تحقيق الكتاب لكنه اخفق في عدة اماكن في قراءة النص بشكل صحيح ، الى حد ان « عين الجر » جاءت عنده « عبر الجسر » ، يضاف الى هذا قام رحمه الله باقحام عناوين كثيرة جدا في متن نص الكتاب ، ويمكن وصف هذا بالتزييف ، واعتمدت في عملي على المخطوطة نفسها التي اعتمدها الدكتور دهان ، بل اكثر من ذلك على المصورة نفسها ، لأن مصورات مكتبته رحمه الله بيعت في دمشق فشرت بعضها ، واقوم الآن بتحقيق الكتاب كله وسيخرج - ان شاء الله - في جزئين فقط والله الموفق .

ولواد ابــــن العــــديم في بغية الطلب وزبــــدــــة

- ٧٠٨٨ -

الحلب مكانة سامية ، لهذا سلف وترجم بعضها الى الفرنسية والانكليزية ، ولا بد الآن من اعادة النظر بهذه الترجمات بعد اعادة ضبط النصوص الاصلية.

الله جل وعلا اسأله التوفيق وله الحمد والشكر والصلاة والسلام على النبي المصطفى وعلى آله وصحبه اجمعين.

دمشق ١٥ / ٥ / ١٩٩٥

سهيل زكار